بين بين

للدكتور طه حسين
١٦٠ صفحة
دار العلم للملايين – بيروت

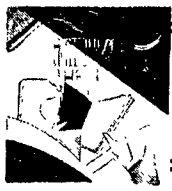

النتاج الجديد

•

لا أكتم « دار العلم للملايين » انني احسست بشيء من السخط والموجدة عليها ، حين قرأت عنوان هذا الكتاب الجديد : « بين بين » تخرجه اليوم للناس تخدعهم به ، وباسم صاحبه ، عما هم فيه من حاضر مليء بالمكاره ، ينذر بمستقبل قد يأتيهم بألوان اخرى من المكاره هي اشد قسوة ، واكثر فجائع واهوالا .

فلقد احسست ، اول الامر ، ان في هذا العنوان شيئاً من القصد الى العبث ، على حين لا نحتاج في يومنا الحاضر الى شيء ، كحاجتنا الى الجد الصارم العنيف نتدبّر به أمرنا ، وندفع به عن انفسنا وأهلينا وأوطاننا كيد الكائدين ، وطمع الطامعين .

ولا أكتم « دار العلم للملايين » كذلك انني اتهمتها في اختيار طه حسين ذاته تخرج له كتاباً مما يكتبه اليوم ، وهو انما يكتب في هذه الايام ، بعيداً عن الحياة التي يحياها الناس في بلده ، بعيداً عن الدنيا التي يعيشها الناس في اوطان الناس كافة ، بعيداً عن رسالته التي كنا نعلم أنه مؤمن بها ، جاهد في نشر تعاليمها ، ناشط في تأييد الحق الذى يمشي في ركابها ، او تمشي هي في ركابه .

وكدت أقصد الى نقد هذا الكتاب قبل ان أقرأ صفحة واحدة منه ، عامداً أن أنقد مؤلف الكتاب نفسه ، لانا نعلم أن هذا العنوان الذي صدر به الكتاب ، هو أصدق ما يصدق اليوم على طه حسين نفسه ، لأن الرجل اليوم هو غير الرجل بالأمس ، ولأن الأديب منه عاد يكتب الأدب للترف والتسلية بعد أن كان يكتب الأدب لبؤس البائسين وعذاب « المعذبين في الأرض » ، يصور آلامهم ، وينتفض لكراماتهم ، ويثور من اجل حقهم في الشبع والصحة والمعرفة ، ومن أجل حقهم في الكرامة والعزة والأمن والدعة .

لقد عاد طه حسين ، في أيامه الأخيرة – وبلده مصر تزخر بالأحداث الجسام ووطنه وادي النيل يقف من التاريخ على مفترق طرق – عاد يتلهى بالقصص المكتوبة يوجزها في عمودين من « الاهرام » ويصفها وصف الناقد المتأنق المتحذلق ، الفارغ القلب من هموم الحياة ، الخلي النفس من مشاغل الدنيا ، الهارب من جد العيش الى شيء كثير من اللهو والمتعة الهادئة المطمئنة الوادعة ، المنهزم من معركة الحرية الى إيثار السلامة واستطابة العافية ، واستظلال الأمن والعزلة والراحة ...

وما أصدق أن تقرأ عنوان هذا الكتاب الجديد هكذا : « طه حسين ... بين بين » .

نعم ، إنه اليوم « بين بين » : أي بين الأديب الذي يقيم لانسان هذا الكون وزن الانسان : يعنى بانسانيته فيما يكتب ، يعنى بعيشه وحريته وكرامته وإرادته ، وبين الأديب الذي لا يقيم لانسان هذا الكون وزن الانسان : يراه يضطرب بالسلاسل والقيود والأغلال ، ويتململ بالعبوديات من كل صنف ولون ، ويرزح من البؤس والظلم والخوف بالأحمال الثقال ، ولكنه يعرض عنه عامداً متعمداً ، ويروح يدبج هذه الفصول الطوال في « الأهرام » يحلل هذه الأقصوصة ، ويفلسف هذه الرواية ، ويتمدح هذه الأسطورة ، وقد يتغنى بظواهر من أمور الحياة الحاضرة لا تغني عن الحق شيئاً . . .

*

نعم ، لقد كدت أدع هذا الكتاب الجديد تصدره « دار العلم للملايين » باسم طه حسين ، فلا اقرأ منه صفحة واحدة ، وانصرف الى نقد طه حسين نفسه ، ولكني لم استطع ذاك ، فالرجل عندي كبير كبير ، والرجل في حياتنا الفكرية ، اي في حياة جيلين من اجيالنا الفكرية العربية ، اديب عظيم ، ومفكر كان اول من فتح لعقولنا سبيل التفكير العقلي الموضوعي ، وإنسان يجمع الى نفسه مزايا الانسان المتفتح للحياة يحسها بكل جارحة ، ويتصل بها من كل طريق ، وينفذ الى جوانبها واعماقها من كل باب .

فكيف استطيع ان انصرف – إذن – عن كتاب جديد يصدر لطه حسين ، فلا أقرأ كل حرف فيه ، ولا اعيش معه ساعات اجوب فيها الى جانبه شعاباً من الحياة وأرى فيها وجوهاً من العيش ، واتصل فيها بنفوس كثيرة ذات ألوان من نفوس الناس ؟

واخذت الكتاب أقرأ اول فصوله «بين الأدب والسياسة» فاذا هو ادب قد استوفى حقه من الادب ، واذا هو سياسة قد استوفى حظه من السياسة ، واذا الادب فيه لا ينفصل عن

السياسة ، واذا السياسة لا تنفصل فيه عن الأدب ، فليس هو — إذن — « بين الأدب والسياسة » ، وإنما هو كل واحد منهما كاملاً ، يتمازجان معاً ، حتى يكونا امراً واحداً ، لا امرين اثنين .

لقد كتب طه حسين هذا الفصل منذ سبعة عشر عاماً ، ووصف فيه من حياة مصر ما نراه اليوم في حياتنا هنا وهناك ، فكأنه كتبه في لبنان ليومنا هذا ، وكأنه كتبه في كل قطر عربي لحياته التي يحياها حتى هذه اللحظات ، وكأن ما صوره من وجوه رجال السياسة والحكم والادارة والثراء والجاه في مصر ، قصد به الى تصوير هذه الوجوه التي تطالعنا صباح مساء في هذه الديار ، وفي كل دار عربية ، وما ندري الى اي مدى من الزمن ستظل تطالعنا بالشؤم كل صباح وكل مساء ؟

ولكن ، هذا هو الفصل الثاني « أدب الصيف » ينقلنا ، على حين فجأة ، من جد الحياة وهزلها ، الى شيء من الكلام ليس هو بالجد ولا هو بالهزل ، ولكنه أشبه بتثاؤب المتعب المكدود يغريك بالتثاؤب ، في حين تكون شديد الحاجة الى النشاط والتوثب والحركة والانطلاق ... وما اعرف كيف اختار جامعو الكتاب ، هذا الفصل « المتثائب » الى فصول تكاد تطفر وتثب من فرط الحياة والنشاط ؟

ولست أعرف ، كذلك ، كيف اختار جامعو الكتاب ، الى تلك الفصول ، هذا الفصل الثالث « حوار في الأدب » ؟ . ألعلهم قصدوا إليه قصداً حتى يتحقق اسم الكتاب « بين بين » ؟.

صحيح أن هذا الحوار يتصل بأديب مفكر شامخ كأبي العلاء ، ولكنه فصل لا يحقق شيئاً خطيراً من أمر أبي العلاء ، فليس فيه أكثر من أن هذه القصيدة من قصائد المعري تصف حنينه ، وهو في العراق ، إلى وطنه بلاد الشام ، وهذا المعنى يعيد فيه طه حسين ويبدىء ، ثم يعيد ويبدىء ، وكأنه لا يقصد من ذلك إلا أن يزجي فراغاً ، أو ينشر مقالاً ...

واستثن ، بعد هذا ، فصلين آخرين من الكتاب ، هما : « لبنان » و « دَيْن » ، لأنهما لا يعنيان إلا طه حسين نفسه ومفوضية السياحة والاصطياف في لبنان ، ليس غير ! .

أقول : استثن هذين الفصلين الآخرين ، ثم اختر ما شئت من فصول الكتاب الأخر ، فاقرأه ، وتعمقه ، وأبعد فيه نظرا ، فسترى هذا الأديب يتحدث إليك عن ضمائر النفوس ، وعن خوالج الأفئدة ، وعن صور الحياة السياسية ، وعن معاني الذوق ، وعن مفاهيم الحكم ، وعن مظاهر البؤس والظلم ، وعن اعراض الفساد الاجتماعي ، حديث أدب وفن ، فاذا كل هذه المعاني والصور والمفاهيم قائمة في واقع الحياة تحس وجودها إحساساً باليد أو بالعين او ما شئت من أدوات الاحساس ، واذا كل هذه المعاني والصور والمفاهيم تتلاقى وتنسجم في إطار واحد ، هو إطار الأدب والفن ، وإذا هناك مزاج من السياسة والاجتماع والفكر والأدب والفن جميعاً ، وإذا الأدب يؤدي معناه الفني في معناه الانساني الواقعي دون أن تقول إن هذا سياسة مثلاً طغت فيه السياسة على الأدب ، او تقول إن هذا أدب طغى فيه الأدب على السياسة ، لانه لا فصل بينهما البتة .

فهذا طه حسين يصور لك « الضمائر القلقة » في مصر ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ويرد أسباب القلق في الضمائر ، إلى القلق في الحياة السياسية والاقتصادية والادارية والاجتماعية ، إلى هذا الضيق بالعيش الذي تنشئه الحرب في حياة الشعوب ، وإلى هذا الضيق بالاغلال والقيود التي تستتبعها الحرب في سياسة الاوطان ، وإلى هذا الضيق بالتحلل والتفسخ الاجتماعي الذي تنشر الحرب جراثيمه في الجماعات .

« فأهوال الحرب من جهة ، ومصاعب الحياة الاقتصادية من جهة أخرى ، والتغييرات السياسية من جهة ثالثة ، والبؤس والحرمان اللذان ينتهيان الى الجوع والشقاء في بعض الطبقات من جهة رابعة ، كل ذلك خليق ان يعقد منافع الناس أشد التعقيد ، وان يقوي الأثرة في نفوس الأفراد والجماعات ، وان يضطر كل واحد من أفرادهم وكل جماعة من جماعاتهم الى الاحتياط للنفس ، والاستكثار من الخير ، والاستعداد للمستقبل ، والتحفظ من الطوارىء ، والتخلص من المشكلات ، والنفوذ من الخطوب . فليس غريباً أن يدفع هذا كله الناس الى حياة لا تقوم على أمن الضمائر واطمئنان القلوب ، ولا تقوم على الثقة والصراحة ، وانما تقوم على القلق والخوف ، وتقوم على الشك والحذر ، ولعلها ان تقوم على الكذب وعلى أخلاق تتصل بالكذب من قريب او بعيد (ص ٨٢) » .

أترى كيف يرجع طه حسين ، في هذه العبارة ، بالقضية النفسية ، والقضية الأخلاقية ، والقضية الاجتماعية ، والقضية الاقتصادية ، الى مصادر واحدة لا فصل بينها ولا انعزال ، فاذا مشكلات النفس والضمير والعيش والاجتماع والسياسة ،

تتلاقى جميعاً وتترابط وتتفاعل ، واذا هي كلها تصدر عن اسباب وعوامل واقعية قائمة في حياتنا اليومية ، واذا الحرب من اعظم المصادر لهذه المشكلات والأزمات جميعاً .

ثم ، أترى كيف يضع طه حسين هذه المسألة الفكرية على تعدد نواحيها وخصب نتائجها ، على هذا الوجه البسيط لا تحس معه جهداً في البحث والتفكير ، ولا مشقة في التحليل والتعليل ، فاذا انت أمام الحقيقة الواقعية تكاد تعانقها عناقاً بقلبك وعقلك وشعورك جميعاً ؟

ذلك هو فعل الفن الواقعي العبقري ، وتلك هي رسالة الأدب الصحيح .

وبعد ، ليت طه حسين مستطيع ان يبرىء عبارته من هذا المط والاسهاب ، وليته مستطيع ان ينزه أسلوبه من هذا الالحاح في التأكيد والتوضيح ، ليته مستطيع ان يفعل ذلك ، إذن لكان فنه الفنَّ الذي يؤدي الرسالة بأجمل أداة ، وأبرع وسيلة ، وأخصب أسلوب ، وأقرب طريق الى النفوس والعقول والمدارك والملكات .

وشيء آخر أريد أن أقوله في هذه الفصول الرائعة في كتاب « بين بين » ، وهو ان طه حسين فيما يصف ويصور من مشكلات الحياة والنفوس والضمائر ، انما يقتصر على الوصف والتصوير ، وما نراه يتجاوز ذلك مطلقاً الى وضع الحلول الصحيحة الكاملة لهذه المشكلات ، ولو فعل ذلك ، لكان فنه الفنَّ الذي يؤدي الرسالة بأنبل طريقة ، وأكمل وجه ، وأنفع سبيل ، ولكان أدبه الأدبَ الذي يجمع العظمة من أطرافها ، وأحسب أن طه حسين يتجافى عن قراءة الأصول العلمية للمشكلات الانسانية : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية او عن تعمق هذه الأصول التي يقوم عليها هذا الانقسام الكبير العميق بين عالمي الأرض .

حسين مروه

دُرّ !!

« منها ... بعد سهرة »

يا اخا الحُبّ لا أُحسُّ – بكَ – الأيـ
امَ ، حتى كأنَّما هـي نَهرُ
هـي تنسابُ بي الى شاطىءٍ حـ
فَّ مجاليه مـن ودادِكَ زهرُ
كلَّما شئتُ ان أقـرَّ بجنبـ
يَّ ، تمثّلتَ لي .. فكيفَ أقِرُّ
كان هـذا الهلالُ يرعَى خُطانا
لا عدِمْناه راعيـاً وهْو بدرُ
ليتَ شِعري ، هل هلَّ الا وعندي
منكَ بينَ الضلوعِ بردٌ .. وحرُّ
انَّ مَن تَسهرُ الليـاليَ لا تسـ
أمُ عـدَّ النجوم ، وهـي تمرُّ
كلَّما قلّبتْ جفونِيَ في الأنـ
جُمِ ألحاظَهـا رأتْ ما يَسُرُّ
قَمرٌ طالـعٌ ، ودربٌ منيرٌ
وحديثٌ عذبٌ ، ووجـهٌ أغرُّ
انا استنشقُ النسيمَ ، وفيـه
منكَ راحٌ تُنشي ، وروحٌ تبِرُّ
فاذا جازَ بي ، لمسْتُ على الور
دِ شفاهاً – او كدتُ – وهي تُسِرُّ
أفتدري ما ذا تُسِرُّ ؟ .. برأيِ
أمسِ أبدَيتَـهُ ، وكلُّكَ بِشرُ
حينَ صرّحتَ انَّ شِعريَ .. (لا،لا،
كلُّ لفْظٍ منهُ ، على فيكَ) .. درُّ !

البحرين — ابراهيم العريض

قرأتُ العددَ الماضي من "الآداب"

باب تفتحه المجلة ابتداء من العدد القادم يتناول فيه احد الكتاب المعروفين مقالات « الآداب » بالدراسة والنقد .